الحجاج ومسالكه عند أبي الوليد الباجي

Al-Hajjaj and its paths according to Abu Al-Walid Al-Baji

د.نعار محمد

جامعة تيارت

الملخص يعكس الدرس الحجاجي رؤية فعلية عن التراث الغريق الذي اتسم بدرس الحجاج والجدل كما هو في تراث الأمم الأخرى من ذلك كان وجوده ضمن المعارف والانشغالات العربية امرا اساسيا في الدفاع عن الملة وقد كان ذلك من خلال علم الكلام وقد كانت للبلاغة الفضاء الذي استطاع أن يحتوي هذا العلم وفي هذا السياق تدخل مجهودات ابي الوليد من خلاله كتابه الحجاج بحكم المعارف التي حصلها وفعلها في بلاد الغرب الإسلامي وكان له الأثر البليغ في منهجها وإعادة النظر في قراءة النصوص وإخراجها بما يتناسب والمرحلة الحساسة التي كانت عليها البلاد الاسلامية .

كلمات مفتاحية :الحجاج ، الجدل ،المنهج ،الاحتجاج ،القرينة .

The Hajjaji lesson reflects an actual vision of the drowning heritage, which was characterized by the study of pilgrims and controversy as it is in the heritage of other nations. From that, its presence within the Arab knowledge and preoccupations was essential in defending the denomination and that was through the science of theology and rhetoric had the space that was able to contain this science In this context, the efforts of Abu Al-Walid enter through his book Al-Hajjaj by virtue of the knowledge that he obtained and did in the countries of the Islamic West, and it had a significant impact on its approach and reconsideration of the reading and production of texts in proportion to the sensitive stage in which the Islamic countries were.

Key words: the pilgrims, the debate, the approach, the protest, the context.

المتتبع لسيرة الرجل ، يتأمل تماما مسلكا علميا مميزا ومنهجا بات يعرف من خلاله ؛ تبعا لملكة غزيرة متعددة آتت أكلها آحايين كثيرة في مواقف الرجل؛ عندما عجت المجالس بذكره وتحلق طلبة العلم بحلقاته و قد شاع مذهبه في الاحتجاج وهو يقدم ادلته يجادل ويفاضل ويخالف ؛ أدوات أضحت آلة في بيانه وسليقة في تبيانه ولعل الفضل يعود إلى سيرة الرجل ومساره ، الذي يبدو أنه هُيأ لكي يكون كذلك فلولديه الفضل ، بشغفهما للعلم وتفرغه هو لذلك في الأندلس وبلاد المشرق بعد ذلك ؛ مكّنه من أن يكون له منفذا أوفى واستوفى من خلاله ما أراد .

ابو الوليد المالكي الاشعري :

هو سليمان بن خلف بن سعدون بن ايوب بن وارث الباجي، يعود أصله إلى بطليوس ثم انتقل إلى باجة الأندلس وسكن قرطبة ، حيث أخذ علمه من هذه المدائن على يد شيوخها ، منهم ابن الرحوي وابن الأصبع ومحمد المكي وابن شاكر ومحمد ابن اسماعيل وغيرهم وقد اجازه هؤلاء وغيرهم ، ليكون الحافز والطموح أكبر حيث قرر اتمام مساره مشرقا ببلاد الحجاز مبتدأ ، فاخذ عن علمائها كابي بكر المصوغي وابن سحنون وابن صخر وابن ابي محمود الوارث وغيرهم وبعدها سافر إلى بغداد مرتميا في ملل ونحل المذاهب والمشارب ، إذ كان الأثر الكبير في سيرة للباجي متكلما ومعتبرا فأخذ عن ابي اسحاق طاهر بن عبد الله الشيرازي الشافعي وابي عبد الهادي الدمغاني والصيمري رئيس الأحناف وغيرهم ومما يذكره الباجي واصفا هذا الأثر بيتين ذكرهما الخطيب الحافظ البغدادي:

إذا كنت أعلم يقينا بأن جميع حياتي كساعة .

فلم لا أكون طنينا بها وأنفقها في صلاح وطاعة .

ثم كانت الشام محطة موالية ، فتلقى من ابي السمسار ثم مصر مع ابي الوليد ، بذلك تكون رحلة الباجي ومقامه بالمشرق قد بلغ ثلاثة عشر عاما .

يعود الباجي إلى بلده الاندلس وقد حمل زادا وفيرا من المعرفة والمدارك ومسلكا جديدا ، تبنى فيه الاحتجاج وأدب المناظرة والجدل والخلافيات مآلا ومقالا ؛ لم ينتظر الباجي طويلا حتى أصبح علما ومقصدا لكل طالب وسالك من العلماء والأمراء متحلقا من حوله طلبة العلم وقد عرف منهم من طلبته :ابو القاسم المعافي والسبتي وابن جعفر المرصي وغيرهم ...وهؤلاء من الذين ذكرنا ، يشهدون بسعة علمه وفقهه فإذا كانت شهرتهم قد طالت فلأن لأستاذهم ابي الوليد اليد الطولى في ذلك ...1

أما ما ورد في حق الباجي من شهادات فهي تذكره بريادته في فنه ؛ يُذكرفي ذلك القاضي ابي علي بن شكوة وما ذكره تباعا ابن شكوال في كتاب الصلة يقول" ما رأيت مثله على سمته وهيبته وتوقير مجلسه وهو أحد ائمة المسلمين ؛ وأورد بن بسام لابن حزم الظاهري قوله " لم يكن لأصحاب المالكي .بعد القاضي عبد الوهاب مثل ابي الوليد ...." وتتجلى قيمة هذه الشهادات وغيرها منها على الأخص شهادة ابن حزم ، إذ يعترف للرجل بالنبوغ ، رغم ما كان بينهما من جدال ومناظرات جمعت بينهما ومن الشهادات التي تبرزمسلكا أخر في حق الباجي ، ما ذكره ابن عربي الفقيه والمفسر المالكي الأندلسي يقول " عطفنا عنان القول إلى مصائب نزلت في طريق الفتوى لما كثرت البيع وذهب العلماء وتعاطت المبتدعة منصب الفقهاء وتعلقت بهم مطامع الجهال ...ولولا أن الله تعالى منّ بطائفة تفرقت في ديار العلم وجاءت بلباب منه كالقاضي ابي الوليد الباجي وابي محمد الصيلي، فرشوا من ماء العلم على هذه القلوب الميتة وعطّروا أنفاس الأمة الذفرة ، لكان الدين قد ذهب ...."2

المناظرة والحجاج :

أصبح لهذين الفنين قاعدة صلبة ببلاد الاندلس ، للنوازل التي نزلت ثقافيا وسياسيا واجتماعيا هذه البلاد بما حباها الله ؛ أما ما كان من الباجي فكان رائدا من رواد هذا الفن ، من خلال المناظرات التي جمعته على الخصوص بابن حزم فقد استبد اسم الأخير مجلسا وعلما بلاد الاندلس وكان لمذهبه واتباعه وفنه اليد الطولى ولما قدم الباجي من رحلته من المشرق رأى فيه الناس الرجل الند لابن حزم فكان كذلك ، إذ قد دارت بينهما مناظرات طويلة ومجادلات قوية فضح الباجي ابن حزم فيها ، مما جعل صوته يخبو ودعوته تموت ."....ومما يذكر في في ذلك أن السبب أن كتب الفقيه محمد بن سعيد الميورقي إلى ابي الوليد الباجي ، يطلب فيها مناظرة ابن حزم فسافر الباجي إلى ميورقة و اجتمع ابن حزم بين يدي أميرها ابي العباس أحمد بن رشيق و ناظره وأظهر خلل رأيه ، كان كثير من الناس قد نفروا منه لحطه على أئمتهم و تخطئة لم يأفج عبارة , و أقط محاورة فتقوى خصوم ابن حزم بهذه المناظرة و صار الملوك بلادهم و أحجم الناس عن كتبه و أحرق بعضها باشبيلية و مزق علانية وأنكفأ ابن حزم إلى موطنه الأصلي في البادية لبلة حيث وافته منيته في سنة 456 فريدا معزولا(3)

و من طرائف ما جر في المناظرات ، أن أبا الوليد لما أنقضت مناظرة منها قال لابن حزم " تغدرني فإن أكثر مطالعتي كانت على سرج الحراس فقال ابن حزم و تعذرني أيضا فإن أكثر مطالعتي كانت على منائر الذهب و الفضة.

أما عن أشهر مناظراته ، فكانت إحداها في توجيه لأحاديث الرسول عليه الصلاة و السلام و منه الحديث : " لما اعتمر النبي صلى الله عليه و سلم في ذي القعدة فأبى أهل مكة يدعوه يدخل... "

و قال ابو الوليد في شرح الحديث بما يقتضيه ظاهر لفظه كتابة رسول الله صلى الله عليه و سلم ؛ فقيل له : وعلى من يعود ضمير قوله كتب قال :على النبي صلى الله عليه و سلم فقيل له : و كتب بيده ؟ قال : نعم ألا ترونه يقول في الحديث : فأخذ رسول الله صلى الله عليه و سلم الكتاب و ليس يحسن الكتاب "

و هذا قول متعارض ، في ظاهره مع نص القرآن الكريم ، الذي وصف الرسول بالامية في قوله تعالى من سورة الجمعة " هُو الذي بعث في الأُميّين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته و يزكيهم و يعلمهم الكتاب و الحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين" و في قوله من سورة الانعام " قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات و الارض لا إله إلا هو يحي و يميت فآمنو بالله ورسوله النبّي الأمي الذي يؤمن بالله و كلماته "

فأنكر عليه الفقيه ابو بكر الصائغ الداني و كفّره ، باجازته الكتابة على رسول الله النبي الأمي و إنّه تكذيب للقرآن ، وقد انجرى عن ذلك متاعب للباجي حتى قيل فيه من قول الشاعر:

برئت ممن شرى دنيا بآخرة....و قال : إن رسول الله قد كتب"4

و قد وجه بعض العلماء قراءة الباجي ومنهم الامام الذهبي" في اعلام النبلاء " و قد قال : قلت : يجد أن على النبي صلى الله عليه و سلم أن يكتب اسمه ليس إلاّ ، ولا يخرج بذلك عن كونه أميا ، ما من كتب اسمه من الأمراء و الولاة ادمانا للعلامة بعد كاتبا فالحكم للغالب لا لما ندر وقد قال عليه السلام : إنا امة أمية لا نكتب و لانحسب أي لأن أكثرهم كذلك و قد كان فيهم الكتبة قليلا ،.يقول عليه الصلاة والسلام :" لانحسب " حق و مع هذا فكان يعرف السنين و الحساب و قسم الفيء و قسمة المواريث بالحساب العربي الفطري5.

ماذا كان يريد الباجي من هذا التخريج ؟ خصوصا إذا قارنا هذا الموقف بمواقف معاصرة، باتت ترى في هذا الحديث دليلا لاعتبارات مشككة ورؤى مرجحة ومن بين تلك الدعوى موقف المستشرقين عموما و

المستشرق الفرنسي جاك بارك خصوصا في كتابه : إعادة قراءة القرآن الكريم وأقلام من العالم العربي : معروف الرصافي في كتابه الموسوم : الشخصية المحمدية وفي مواضع ومناسبات متفرقة بين طيات المؤلفات والأقوال الصريحة من قبل الجابري ومحمد اركون وغيرهم6 .

قراءة في كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج

يذكر الباجي الداعي من وراء كتابة مؤلفه يقول :" فاني لما رأيت بعض أهل عصرنا عن سبيل المناظرة ناكبين وعن سنن المجادلة عادلين ...أزمعت على أن اجمع كتابا في الجدل يشتمل على جمل أبوابه وفروع أقسامه وضروب اسئلته وأنواع أجوبته والكتاب باكورة تقريبا في هذا الفن في هذه البقعة المغربية من العالم الاسلامي " ص16ومما يذكر أيضا تأثر الباجي بأهل هذه الصنعة وتأثره بمجالسهم ويرى البعض أن الشيرازي كان من بين هؤلاء بل كان الأقرب والمعلم الأول للباجي في هذا الفن " والباجي مدين لابي اسحاق الشيرازي خاصة ، في حذقه لفن الجدل في أصول الفقه والواقع أن هذا الدين هو كل ما نستطيع التأكد من حقيقته ، إذ لم يصلنا في هذا الميدان إلا كتب الشيرازي وخاصة منها الوصول إلى علم الأصول، الذي يمكن مقارنته بكتاب المنهاج "7 وقد تعرض فيه للأراء المختلفة ، من المذاهب الثلاثة الكبرى ، في مسائل منتخبة ليضعها في ميزان الأراء المالكية وإن كان حضور الحنبلية ضعيفا ،على عكس الشافعية فهي بارزة بصورة جلية " في مظهر ذي شأن ، إذ يتحدث عن شيوخها في شيء من التقدير والاجلال ، خاصة إذا تعلق الأمر بأستاذيه الطبري وابي اسحاق الشيرازي" 8

برز الباجي أداب هذا الفن و ما هو لابد ، من اعتبار للمتأدب حتى يخوض في هذا الفن ونكتفي بعرض باب من الأهمية بمكان وإن كنا نخشى الاخلال ونحن نجمل ما مقامه التفصيل، لكننا ركزنا على جملة من الشواهد، نعتقد أنها مشاعة بين طلبة العلم فلعلنا نخرج من خلالها على ما يبلي بيانا ،على ضنون ومشكلات تطرح في مقامات كثيرة والباب الذي نعتفد أنه يلبي ذلك هو معقول الأصل ويقسم إلى أنواع وهي:

. النوع الأول: لحن القول :

وجملته أن لحن الخطاب لا يقصد إلى الاستدلال به وإنما يقدر في الكلام ليتم الاستدلال به وقد يضاف مرة إلى الكلام به ومرة ليصح التأويل به "9 ومن الشواهد التي استحضرها قوله تعالى :"يَسْأَلونَكَ عَنْ الأَهلة قُلْ هي مواقيتٌ للنّاس والحَج ". فالمالكي يستدل على أنه يصح الإخراج في جميع السنة والمراد به مواقيت

لإحرام الحج .....لأن الفعل نفسه لايكون في أهلة وإنما يكون توقيته هلال واحد بتقدير محذوف والتقدير: إحرام الحج بتقدير مضاف .

. ما يضاف اليه ليصح التأويل :

يستدل بالأية من قوله تعالى:" قَال منْ يُحيْ العظَام وَهيَ رَميْم." أي أصحاب العظام وقد اعترض الباجي على ذلك على اعتبار أنه أقل ما يقع الخلاف في متضمنه وهو توجيه الأحناف والمالكية يثبتون ظاهر الآية ما يقع الخلاف في متضمنه .

. النوع الثاني : فحوى الخطاب بين خفي وجلي .

. الشاهد من الأول : قوله تعالى " وَلاَ تقُلْ لهما أُف ."على اعتبار أنه أقل ما يقع الخلاف في متضمنه .

. الشاهد من الثاني : من قوله تعالى" إنْ جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبينوا" . إن لم يؤخذ بقول الفاسق المليّ فما البال بالأخذ عن الكافر 10 .

. النوع الثالث :الاستدلال بالحصر .

وهو استدلال بدليل الخطاب ، يعترض فيه الأحناف على المالكية في الحديث "إنما الأعمال بالنيات". وهو عندهم أي المالكية للحصر، بمعنى نفي العمل بغير نية واثبات العمل بنية .

النوع الرابع: الكلام على معنى الخطاب .

وهو القياس يقول الباجي" وهو من أعظم أدلة المعقول شأنا " ويتدرج اعتبارا إلى مراتب ثلاث: المطالبة والإعتراض والمعارضة ولها تفصيل 11 .

مسلكه :

أما عن مسلكه فيتضح من مقاله ومؤلفاته اشهاره لمذهب مالك ؛ ذلك ما أعده من عدة في تخريج الأحكام على سمته أثناء مناظراته فيبدي التزامه و تمسكه به ؛ رغم ذلك نجد الرجل متسامحا متقبلا لكل رأي فيه دليل و احتجاج "..و ذلك أن فتوى المفتي في المسائل و كلامه عليها و شرحه لها ،هو بحسب ما يوفقه الله تعالى و يعينه عليه و قد يرى الصواب في قول من الأقوال، في وقت يراه خطأ في وقت آخر ولذلك يختلف قول العالم الواحد في المسألة فلا يعتقد الناظر في – كتابي- أنما أوردته من الشرح والتأويل والقياس والتنظير طريقه القطع عندي، حتى أعيب من خالفها و أذم من رأي غيره وإنما هو مبلغ اجتهادي

وما أدى إليه نظري و أما فائدة اثباتي له فتبين منهج النظر والاستدلال والارشاد على طريق الاختبار والاعتبار فمن كان من أهل الشأن فله أن ينظر في ذلك..."12

هذا فإن الباجي صوت من الأصوات التي اعتقدت في كون لغة القرآن الكريم معجزة وانتسب هذا الصوت في كون هذه اللغة خطاب حياة ، يثار من خلاله حيوات متآنسة جامعة ويثير في كونه سياحة للمتدبر والمتأمل وقد رأى الباجي أن ذلك متحقق في أغلبه في مسلك المالكية بعد أن فكر وقدر، في رحلة مع العقل دفعت به تلك المجالس الى بيان ذلك ،إذ أثرت في مسلكه حجاجا وجدالا، نقلا وعقلا ،ها هي تلك الملكة تعطي و تثمر الأمس واليوم ، بين محاذير وخطوب ، ما بين بين، تسلّم اعتقادا وإيمانا أن الإختلاف مهما كان سيثمر وسيسلم ، أن هده اللغة وخطابها في الأخير هو ولابد ما أريد لها أن تكون .

مراجع البحث:

1- العمري بلاعد : الامام ابو الوليد الباجي وجهوده في خدمة المذهب المالكي . أصولا وفروعا . مجلة المصطلح دراسات وأبحاث جامعة المسيلة ، العدد28 ، سبتمبر 2017 .

2- محمد صلاح المشتباوي : الوليد الباجي وكتابه المنتقى من شرح الموطأ ، مقال الكتروني .

3- العادل عبد العزيزغيث عبد الخالق : الصراع المذهبي بين المالكية والظاهرية في الاندلس وموقف ملوك الطوائف حيالها . ابن حزم الظاهري أنموذجا . مجلة المريح كلية التربية ليبيا .

4- ينظر: معروف الرصافي : الشخصية المحمدية ، منشورات الجمل المانيا 2002م وينظر: مجموعة من الكّتاب : رحلة الرصافي من المغالطة الى الإلحاد – دراسة تحليلية نقدية لكتابه الشخصية المحمدية -دار صفحات 2007م وينظر: جاك بارك : اعادة قراءة القرآن

5- ابوالوليد الباجي : المنهاج في ترتيب الحجاج ، دار الغرب الاسلامي ط1 1987 .

6- المصدرنفسه : ص19 .

7- المصدرنفسه:ص8-9 .

8- - المصدر نفسه:ص145 .

9- المصدرنفسه:147 .

10- المصدر نفسه:148 .

11- المصدرنفسه :ص ن .

12- ينظر : العادل عبد العزيز غيث عبد الخالق : الصراع المذهبي بين المالكية والظاهرية في الأندلس وموقف ملوك الطوائف حيالها . ابن حزم الظاهري أنموذجا . مجلة المريح كلية التربية ليبيا .